الصباح الإسلامية
AL-SABAH
No. 3986 | الأربعاء | 21 شوال 1442 هـ | 2 يونيو 2021 م | السنة الرابعة عشرة
Alsabah Media www.alsabahpress.com

كعب بن مالك وابن رواحة شاعرا الرسول

«النزال اللغوي» مثل «الحرب النفسية» بين المسلمين والكفار

إعداد : هذال المطيري

كان الشاعر عند العرب هو الوسيلة الإعلامية الأولى والخطرة، التي تعبر عن المواقف والمشاعر وتنقل مجريات الصراع الدائر، وتوصله إلى القلوب بطريقة مؤثرة، في توجيه الرأي العام، ويتوقف نجاح الشاعر على قدرته في توظيف موهبته، وحسن أسلوبه في الدخول إلى النفوس.

كعب بن مالك.. شاعر الحرب

هو عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري، وكنيته أيام الجاهلية «أبو بشير». شاعرٌ من شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم،

وهو الشاعر الذي يصنع الحرب النفسية، ويجيد توجيه خطابها الى الاعداء ، وكان ذلك لما انهزم المشركون يوم حنين، و ترقبت قبائل العرب في الحجاز الأمر، وعاشت في حالة من القلق والذعر، أمام انتصارات الرسول-صلى الله عليه وسلم-وأمام الهيبة المتنامية للإسلام في جزيرة العرب، وكانت قصائده رضي الله عنه اللسان الرسمي في الإشاعة بغزو الطائف أو دوس... حتى أن دوساً خافت لما سمعت هذه شعره، فجاءت عجلى بوفدها لتبايع الرسول صلى الله عليه وسلم وتعلن إسلامها دون مقاومة.

، وقد كان كعب بن مالك رضي الله عنه نعم الشاعر الفارس الذي يدرك خطر الكلمة وأثرها في مخاطبة القلوب، وقد استطاع وسط الترقب والقلق الذي يساور القبائل أمام الإسلام الممتد النامي، أن يشن حرباً نفسية تنمي عنصر الخوف والهلع في نفس الخصوم، وكان موفقا منذ بداية القصيدة (قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أجمعنا السيوفا) إنه كلام الواثق، الذي يحاصر الأعداء في نفوسهم، حتى تضيق ذرعا، فتندفع نحو الخضوع دون مقاومة. فسيوف المسلمين انتهت من السيطرة على الحجاز (خيبر والمدينة ومكة) ثم عادت إلى أغمادها لتستريح قليلا ، ولو أن هذه السيوف عاقلة وخيرت في رغبتها، إلى من ستتجه المرة القادمة لاختارت وقالت نريد قبيلة دوس أو ثقيف، وقد نجح كعب في إشعار المخاطب أنه محاصر، ولا مفر له ولا فائدة من العناد فوصل إلى أهدافه يوم أن استثمر انتصارات المسلمين ووظفها في الحرب النفسية، فكشف ضعف الأعداء وعدم قدرتهم على معاداة الدعوة، والازدراء لمن يعاديها، وفي هذا محاصرة لبقايا العناد والمكابرة في النفوس، وإضعاف لصبر الأعداء على المجالدة، وإغلاق لأبواب الأمل في وجوههم، وتوسيع لسيطرة الرعب، والضعف، ودعوة للإذعان، وتشكيك لهم في النهج والعقائد التي ساروا عليها، وقد انكشف الحق وتجلى بنوره واضحا أمام العيون، وظهر الباطل وخذلانه، فاللات والعزى وود مهدده بالهدم والتكسير وسوف تسلب قلائدها وزينتها، إنه خلع لبقايا الوثنية وتوهين وتهوين لها في النفوس، حتى يسهل على هذه النفوس الانقياد والتسليم، وإذا وصل هذا التهديد إلى قلوب السادة والقادة، الذين يتولون أمر المشركين ويحرضون على الإسلام، فعندها ينتقل الانهيار النفسي بسهولة ويسر إلى الجماهير المضللة التابعة لهم، وليس هذا الأسلوب غريباً على صحابي جليل تربى على القرآن واخذ منه دروساً في الحرب النفسية وفقه معنى قوله تعالى(فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم) الأنفال57.

اشترك مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر التي أنشد فيها شعرًا يقول:

«نبيٌ له في قومه إرثُ عزة
وأعراق صدقٍ هذّبتها أرومها
فساروا وسرنا فالتقينا كأننّا
أسود لقاءٍ لا يُرجى كليمها».

وأنشد فيها أيضًا:

لعمر أبيكما يا بني لؤي
على زهو لديكم وانتخاءِ
لما حامت فوارسكم بِبدر
ولا صبروا به عند اللقاءِ
وردناه بنور الله يجلو
دجى الظلماء عنا بالغطاءِ

وكان كعب بن مالك يُعرَف عنه بأنه شاعرَ الحروب، فكان يُهدّد الكفار ويتوعدهم في الحروب والغزواتِ، حتى أن قبيلة (دوس) أسلمت خوفا من بيت قاله وهو:

نخيرها ولو نطقَت لقالت
قواطعهن دوسًا أو ثقيفًا

أما عن أشهر القصص التي رُويَت عنه فهي تخلفه عن غزوة تبوك على الرغم من كونه قادرًا عليها، ولكن الله تاب عليه بعدما صبر على البلاء الذي توالى عليه عقب تخلفه عن الغزوة، إذ قاطعه المسلمون ولم يكُن الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إليه. كان كعب بن مالك، بالإضافة إلى كونه من شعراء الرسول، من رواة الأحاديث الشريفة، فقد روى 30 حديثًا شريفًا، وتُوفِي وهو في سنِ الـ77 من عمره في الشام.

ومن أشعار كعب بن مالك: شعره في رثاء حمزة بن عبد المطلب

طرقت همومك فالرقاد مَسَهَّدُ
وجزعت أن سُلخ الشباب الأغيد
عم النبي محمد وصفيه
ورد الحمام فطاب ذاك المورد
شتّان من هو في جهنّم ثاويا
أبدا ومن هو في الجنان مخلّد
ومن شعره عن غزوة أحد
إنك عمر أبيك الكريم
أن تسألي عنك من يجتدينا
فإن تسألي ثم لا تُكذبي
يخبرك من قد سألت اليقينا

عبد الله بن رواحة.. الشاعر المجاهد

يلتقي عبد الله ابن رواحة وكعب ابن مالك مع حسان وغيرهم من شعراء الشمولية الإسلامية في الابتعاد عن المبالغة والخيال الهائم، وربط القول بحدود التجربة والتعبير والترابط بين الصدق الشعوري والفني، كما تختلط المشاعر الذاتية بالجماعة وتندمج بها إلى حد الذوبان، حيث جاء الخطاب والتوجيه والتهديد كله بصيغة الجمع، وهذا يدل على قدرة هذا الدين في ربط مشاعر اتباعه وتوظيفها بنجاح في أهدافه، وتمتد الشمولية كخيط القلادة الذي يربط الاعتقاد والمشاعر والفعل والأداء الفني باتساق تام لا شذوذ فيه عن الأهداف التي أرادها الإسلام من هذا الفن

هو أبو محمد بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي. دافع بشعره عن الرسول صلى الله عليه وسلم

وعُرف عنه هو وكعب بن مالك وحسان بن ثابت أنهم شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم والمدافعون بشعرهم وقصائدهم عنه أمام كل من تُسوّل له نفسه لهجائه.

كذلك لم يكنَ عبد الله بن رواحة مجرد شاعر ينطلق الشعر من بين ثناياه عذبا قويا فحسب، لكنه كان أحد الشعراء الثلاثة الكبار الذين جاهدوا في سبيل الإسلام وتصدوا للدفاع عنه ضد كل من أراد النيل منه أو التشكيك فيه.. فقد كون هذا الشاعر المجاهد مع حسان بن ثابت وكعب بن مالك جبهة شعرية قوية تقف إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ترد عنه الهجمات الشرسة التي استهدفت التشكيك في نبوته.

وعبد الله بن رواحة شاعر أنصاري. كان واحداً من النقباء المبايعين الذين تبنوا الدعوة للإسلام قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبعد إسلامه وضع مقدرته الشعرية في خدمة الإسلام، وصار من أكثر الأنصار عملاً؛ لنصرة الدين ودعم بنائه، وكان من أكثرهم يقظة لمكايد عبد الله بن أبي، الذي كان أهل المدينة يتهيأون لتتويجه ملكاً عليها قبل أن يهاجر الإسلام إليها، فمضى يستعمل دهاءه في الكيد للإسلام.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يذكر لابن رواحة أنه من أوائل من بايعوه على مشارف مكة وحملوا الإسلام إلى المدينة ومهدوا لهجرته، كما أنه شارك في غزوة بدر وأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انتهائها إلى المدينة ليبشر المسلمين بالنصر، بل إن النبي كثيرا ما كان يردد أن من أقرب الشعر إلى قلبه شعر عبد الله بن رواحة حتى إنه كان كثيرًا ما يستزيد منه ويردده، وكان يحب رسول الله حبًا شاملاً، ومدحه إياه لم يكن مدحا تقليديا، وإنما كان تعبيرا عن حب، ومن شعره في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم:

إني تفرست فيك الخير أعرفه
والله يعلم أنْ ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته
يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حَسَن
تثبيت موسى ونصرا كالذي نصروا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وأنت فثبتك الله يا بن رواحة، قال هشام بن عروة: فثبته الله أحسن الثبات، ففتحت له أبواب الجنة فدخلها شهيداً.

ومن أحسن ما مدح به النبي صلى الله عليه وسلم:

لو لم تكن فيه آيات مبينة
كانت بديهته تنبيك بالخبر

وفي يوم كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه وأقبل عبد الله بن رواحة، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم: كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول؟ فأجاب عبد الله: أنظر في ذاك ثم أقول.. ومضى على البديهة ينشد:

يا هاشم الخير إن الله فضلكم
على البرية فضلا ما له غير
إني تفرست فيك الخير أعرفه
فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم
في حل أمرك ما ردوا ولا نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسن
تثبيت موسى ونصرا كالذي نصروا

فسر النبي وقال له: وإياك، فثبت الله.

ولما سمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا ابن رواحة أفي حرم الله وبين يدي رسول الله؟! فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم: خل عنه يا عمر فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبال.

كان المسلمون المهاجرون منهم والأنصار يحفظون شعر عبد الله بن رواحة عن ظهر قلب ويرددون أناشيده الجميلة في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ابن رواحة سعيدا بحب المسلمين، ويكثر من الشعر كلما شعر بهذا الحب حتى نزلت الآية الكريمة: والشعراء يتبعهم الغاوون فحزن حزناً شديداً، وقرر أن يترك إنشاد الشعر ولكنه سرعان ما استرد غبطة نفسه وواصل مهمته في الدفاع عن الإسلام بشعره بعد نزول آية أخرى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا.

شهيد مؤتة

شارك ابن رواحة بسيفه في غزوات بدر وأحد والخندق وخيبر وغيرها، وأبلى فيها كلها بلاء حسنا،وحينما جهز النبي صلى الله عليه وسلم لغزوة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل، قال عليه الصلاة والسلام: أمير الناس زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهمَ ومؤتة بأدنى البلقاء، وهي دون دمشق، ولم يكن من القتال بد رغم اختلال ميزان القوى، وحمل زيد بن حارثة اللواء وقاتل قتال الأسود حتى قتل بحربة، فحمل اللواء جعفر بن أبي طالب، وقد ترجل عن فرسه فقاتل ببسالة وقتل من الروم ما استطاع، حتى أثخنته الجراح، ثم ضربه رومي فشطره، ووُجد في صدره بعد انقشاع المعركة اثنتان وسبعون وقيل تسعون ضربة بسيف وطعنة برمح، واستلم اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل ببسالة حتى قتل ونال الشهادة التي حلم بها وسعى إليها، وهو الذي كان دائما يردد:

يا نفس إلا تقتلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت
إن تفعلي فعلهما هديت